

# الإرهاصات الأولى لأسلوبية التلقي

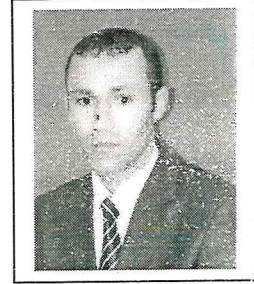
حاجي معمر

أستاذ مساعد

قسم اللغة العربية

معهد الآداب واللغات

المركز الجامعي / سعيدة



الدراسات الفلسفية واللغوية هي التي مهّنت السبيل إلى انبثاق التأثير والتأثير بين النص والقارئ؛ وجعلت الحقيقة المرجوة - فيما بعد التأويل - حقيقة ظاهرة ذاتية والتي لا تكون إلا عندما يدخل الإنسان في علاقات مع الأشياء<sup>1</sup>. هاته الأخيرة هي الوشائج النصية المغلفة، التي لاتحيا إلا بانضواء القارئ إليها في لحظة من اللحظات.

ولذلك كان منظور القراءة هو بحث عن القصدية Intentionnalité، الكامنة وراء الخطاب أي الانطلاق من الذات القارئة إلى الموضوع المقروء ثم حصول التوحد، ولهذا اعتبر أصحاب النظرية الظاهرية أن الأنا المفكرة لا تكون إلا عندما تدخل دخولا فعلياً في علاقات مع الأشياء. وبهذا يصير عمل القارئ ليس البحث عن المعنى فقط، بل تجاوزه بما يعطيه تفسيراً في عوامل انبثاقه يستدعي أفكاراً تقبل المحاوراة الجادة، وهذا ما علق عليه فولفغانغ إيزر بـ: نظرية التأثير والاتصال<sup>2</sup>.

أ- نظرية التأثير والاتصال: الأسس والأعلام: لما كانت اللغة المحور الأساس الذي تنطلق منه الطائقات البلاغية والدلالية، وتتفجر في خلاله العملية النقدية، كان الكلام - في شأنها - بالغ الأهمية، والنظر في نسجها ودلائلها أبلغ؛ ولما كانت تستدعي إلهاماً من طرف المبدع، وتستوجب معانٍ ما، كانت مطروحة أمام نهم القراءة وتأويلاتها، وبعبارة أوضح: كانت معروضة لقراء يحيونها، ويفجرون كوامنها بالشكل الذي ارتضاه صاحبها، أو بشكل تأويلي قد يتعالى على قيم النص للضيقة، ومن هنا تظهر قيمة القارئ كما لو كانت شراكة في التأليف بينه وبين المبدع.

على هذا الأساس، صيغت اللبّات الأولى التي كوّنت فيما بعد - أسلوبية التلقي، وبدا الأسلوب في خلالها - ثمرة التأثير لقراءتي للنصوص الإبداعية. وبنت تجربة المبدع نمطاً تأليفاً، تستشرف جماليته النصية بداهة القارئ وتخرجه إلى حيز الوجود، ولعل

والقارئ في هذه النظرية ليس قارئاً مسقطاً، بل قارئ قادر على الانغماس في صنيع المبدع ولا يتوقف بنبضه الفكري عند حدود إيهام النص، بل تراه يعمل خياله لاستجلاب عناصر جديدة تجعل من النص مفتوحاً على الاحتمال، مما يدفع به إلى الحياة بدل الموت، هاته الحياة التي تتبني على المشاركة النظرية والعقلية للقارئ مع المؤلف من خلال مؤلفه، ومن هنا تنشأ شعريّة الأثر المفتوح التي تجعل من المؤلّف (القارئ) المركز الفعّال في إحياء جماليّة النصّ وتحديثها<sup>3</sup>.

والقارئ- في هذه النظرية- ليس قارئاً مسقطاً، بل قارئ قادر على الانغماس في صنيع المبدع وتبدو العملية الأسلوبية من هاهنا نتيجة منطقية لاتصال القارئ بالنص، والمحلل الأسلوبي واحد من ذاك القارئ بيد أنه يختلف عنه في محاوراته الجادة والعلمية في سبر أغوار النص من خلال أفق فكري قد يكون أرقى مما هو عليه لدى القارئ العادي. ثمّ لما كانت جمالية النص لا تتجلى إلا حين انضمام المحلل الأسلوبي إليها، كان حقيقي بمولينييه أن يجعل الأسلوبية "في نهاية الأمر هي أسلوبية التلقّي"<sup>4</sup> ومردّ ذلك إلى العتبات التعبيرية التي تشدّ انتباه القارئ فتجعله يستقطب المثيرات المائنة في النص ويركن في تحليله إليها، وإلا لظلّ المعنى حبيس منشيئه ولا يرى له الإفصاح، ولقد عبّر مولينييه عن هذه العملية القرائية بـ: أسلوبية التأثيرات la stylistique des effets.

ويرى أيزر أنّ هذا القارئ المقصود ليس له وجود في الواقع، وإنّما هو قارئ ضمني يخلق ساعة قراءة العمل الفني الخيالي، ومن ثمّ فهو قارئ ذو قدرات خيالية، شأنه شأن النص. وهو لا يرتبط مثله بشكل من أشكال الواقع المحدّد، بل يوجّه قراءته الخيالية للتحرك مع النص، باحثاً عن بنائه، ومركّزاً القوى فيه وفي توازنه، وواضعاً يده على الفراغات الجدلية فيه فيملؤها باستجابات الإثارة الجمالية التي تحدث له<sup>5</sup> يمكن القول أنّذ: أنّ هذه النظرية خففت من غلواء الذين تبنوا المنهج الإسقاطي على النصوص وجعلت من القارئ حراً في تجواله وتفسيره لمعطيات النص، وبالتالي الدخول من منطلق علمي يستند في البحث على أطر فكرية قبلية معلومة لديه، وأخرى مجهولة مغلفة تحتاج الإفصاح عنها (معاني النص).

#### ب- قراءة الأثر وجمالية التقبّل:

- سعت الدّراسات الحداثيّة إلى تسليط الضوء على القراءة والقارئ بشكلٍ جدّي، بعدما تناسته النظريّات السياقيّة وأوصدت الباب في وجهه لقول شيء ما حول النصّ الأدبي، ولهذا اعتقد كثير من المعاصرين أنّ الآثار الأدبيّة لا تكتب فحسب انطلاقاً من أوضاع اجتماعية، وتأثراً بعوامل تاريخيّة، ولا تكتب أيضاً حسب خصائص إبداعية وأشكال أسلوبية فقط، بل هي تكتب على وجه الخصوص لقارئ ولجمهور يتّجه بها أصحابها إليه<sup>6</sup>. وتلك النظريّات السياقيّة مهما بالغت في الابتعاد عن

القارئ، إلا أنها لم تستطع إزاحته من مكانها وهي تتعامل مع النصوص الأدبية فالمفكرون اليونان في مفهومهم للمحاكاة كان توجههم نحو القارئ من منطلق الأثر الذي تتركه الآثار الأدبية في مستقبلها كالشفقة أو الفرع... وغيرها.

ألا يحق لنا- من كل هذا- القول إن عملية الاختيار الأسلوبي تتسج وفق ما يتصوره المبدع في القارئ؟ بل أليس خليف بنا الاهتمام بالتلقي واعتباره دعامة كبرى في تجلي العملية الأسلوبية مثلما رأى مولينييه وفيلي سانديرس؟ ولقد بدت اهتمامات النقد بالقارئ في النقد الأدبي الإنجليزي على يد إيجار ألان بو Poe Edger Alan الذي صرّح: "بأنه يفكر أول ما لا يفكر في نوع الأثر الذي يقصد إليه، وبعد ذلك يفكر في الوسائل التعبيرية التي تلائمها".<sup>7</sup> وبدا هذا الملح أمراً وارداً لدى الشاعر الفرنسي بول فاليري P.valery القائل: "لأشعاري المعنى الذي تحمل عليه"<sup>8</sup> وهذا مما ينبئ على أن التوصيف الأسلوبي للقارئ هو وحده الذي يبرر صرامة القراءة الأسلوبية الواعية.

ولا يفوتنا في هذا المقام الإشارة إلى دور علم الاجتماع في الاهتمام بالقارئ "فلئن ركزت الدراسات في هذا الاتجاه عنايتها على تدخل السياقات التاريخية في نشأة الآثار الأدبية، لقد ذهبت مع ذلك إلى أن المجتمع لا يتدخل في الإنشاء الأدبي من حيث هو مصدر لها فحسب، وإنما هو يتدخل فيها أيضاً من حيث هو مستقبل يتلقاها"<sup>9</sup>.

ولقد ذهب روبير إسكاربيت Robert Escarpit - باعتباره أحد المؤسسين الأعلام لعلم اجتماع الأدب- إلى أن الكاتب إنما يكتب لقارئ، أو لجمهور من القراء فهو عندما يضع أثره الأدبي يدخل به في حوار مع القارئ... ومما يبرهن على أن الكاتب يرمي بالإنشاء الأدبي إلى ربط الصلة بالقارئ، أنه يعمد إلى نشر أعماله، فالنشر في ذاته خروج بالأثر الأدبي إلى القراء<sup>10</sup> الذين يختلفون في مستوياتهم الثقافية، وأفاقهم القبلية، وتوقعاتهم الفكرية. لهذا ليس عيباً في أننا نجد أنفسنا أمام عدد لا يحصى من التأويلات للنص الواحد، مادام المراس الفكرية الحديث يبيح التشتت في المعنى، وأن القراءة قراءات.

ولكن، هل كل تأويل هو صالح لبلوغ الحقيقة المرجوة؟

نقول: إن مهمة القارئ تتجلى ضمن مراسه الفكرية، في ملء الفراغات التي تركها الكاتب في النص حتى يتأتى القبض على تلك الجمالية التي خلّصت النص وجعلته يقبل القراءات، من هنا نتجت نظرية جمالية التقبل Lesthetique Réception في ألمانيا بزعامة هانز روبير ياوص Hans Robert yaouss، الذي أتى بمفهوم أفق الإنتظار Horizon Attente<sup>11</sup>، حتى لا يقع القارئ في زلل الفهم وتوصل مع موكاروفسكي Mukarovsky إلى مفهوم القارئ المدرك، وهو قارئ احترافي يقرأ الأثر الأدبي ويتنوّق الجمالية فيه عن طريق تجربته التي تكسبه أفق انتظار خاص.

هذا الأفق هو أيضاً في الكيان الفكري للكاتب ويساعده وهو يحوّر نصوصه على نسجها نسجاً رائعاً، ويتقاسمه في هذا الإنشاء تصوّر الذي يقرأ له فيزيد صنيعة هذا صنعة وقوة، وإلا فقد يتعالى عليه فيصيبه بخيبة الانتظار. وقد أكد ياوص في معرض حديثه عن الآثار الأدبية أنها تلك التي تصيب انتظار الجمهور بالخيبة، لأنها آثار تطوّر الجمهور وتطوّر وسائل التقويم والحاجة من الفن، أو هي آثار ترفض إلى حين حتى تخلق جمهورها خلقاً<sup>12</sup>. ولعل هذا ما يبرّر بجنيّة جليلة المعنى في الكتابة وصبغه بصبغة التعدّد، ومن ثمّ فإنّ "انفتاح النصّ على قراءات متعدّدة هو النّظير الجلي للاستقلال الدّلالي للنصّ"<sup>13</sup>. مادام غياب الحوّل بين القارئ والكاتب أمراً وارداً، وهوما يبرّر بـ "أزل في ظلّ ذلك الغياب.

إنّ ما قلناه آنفاً يحتمّ علينا النّظر في آفاق مشروعيّة أسلوبيّة التلقّي، من خلال ردود فعل القراء حول النصّ الواحد. وعن مدى مشروعيّة التّأويل المتعدّد للخطاب.

### أسلوبيّة التلقّي: آفاق ورهانات

مما لا شكّ فيه أنّ بوادر التلقّي في الأسلوبيّة أفصحت عن عملها من خلال مقالات ريفانير في الأسلوب سنة 1971، الذي أبان عن مفهوم التّأثير بين القارئ والنّص، وأنّ مجال الحديث في الأسلوبيات يقوّننا إلى الاهتمام بالقارئ<sup>14</sup> كونه عمدة الأحكام في الكشوفات الأسلوبيّة، لأنّ تعاقب الجمل في ظلّ انتباه القارئ تقود إلى بروز الأسلوب وانجلائه<sup>15</sup>.

بعد أن كان وقفاً على الكاتب وتعابيرره. ولما كان الأسلوب اجتماع لمعاني النصّ باستوحاء من القارئ، كان الأثر الأدبيّ بنيةً أسنوية تتماهى في ظلّها المعطيات الفكرية، وتشرنّب كلّما دنا القارئ من النصّ، ولذلك كان ارتباط الأسلوبيّة بالجانب اللسانيّ "ارتباط النتيجة بالسبب"<sup>16</sup>، ولا تتأتّى تلك النتيجة إلّا بالتأثيرات التي تكثف التعابير في النصّ، وهي-أيّ التأثيرات- صنعة لغوية من الباث تعمل على ضمان نفاذ المعنى إلى أحاسيس القارئ وهكذا تقوم الخصائص الأسلوبيّة في مستوى المكتوب بما تقوم به الحركات والإشارات والنغمات من وظائف في مستوى المنطوق<sup>17</sup>. ولعلّ هذه الصياغة تبيح الإضطلاع بقوانين البلاغة بما فيها من نمطيّة خرق السّنن اللغوي كالنقد القديم والتأخير وما شاكلهما وهذا هو مفهوم التجاوز الذي قالت بأفضليّته أغلب الدّراسات الأسلوبيّة. ويبدو من هذا المنظور أنّ مكانم التحليل الأسلوبيّ قابعة في خطّ نام، تبدأ درجته الدنيا من النصّ لترتفع إلى أقصى مداها عند محاوره القارئ لها، ومن هذا المنحى العلائقي يبدأ عمل الباحث الأسلوبي في ترصد ملامح التّأثير الواحد أو المتعدّد عند ردود فعل القارئ تجاه النصّ.

وقد تقدّم الاطرادات المتتاليّة حول نصّ ما -من قراء كثر- معرفة موضوعيّة تساهم في خلق مجال حكم أبين لدى محلّي الأسلوب، لأنّ ما اطّرد من آثار ليس من قبيل الصدفة، وإنما من دواعي الحقيقة الماثلة في النصّ.

ومن هنا يكون الأساس المعتمد في البحث الأسلوبي التطبيقي هو "نموذج الأداء المستند إلى المستمع، أو نموذج سلوك المستمع/ القارئ لدى إنتاج النص وتعرف الموقف. ولهذا فقد نشأ موقف جديد دعا إلى تجريد النص من كاتبه، ومما يحيط به من ظروف أدت إلى إنتاجه أو كتابته، ومن ثم تحويله إلى موضوع يدرسه المتلقي<sup>18</sup>

نستوحي مما ثبت أن التلقي الأسلوبي أساساً لمعظم أفكار النظرية الأسلوبية، ويقع ضمن مهام الأسلوبية الواصفة التي تصنف الأسلوب ضمن نطاق النفعية اللغوية "ونظراً لأهمية النفعية اللغوية في الدراسة الأسلوبية، فمن الممكن أن يتوقع التوصل إلى تعريف ذي طابع نفعي للأسلوبية"<sup>19</sup>، كنظرية الفعل الكلامي التي أوجدها سيرل R. Searl في ألمانيا، وميز فيها أفعالاً يقوم بها المتكلم في أثناء الكلام<sup>20</sup>. ولذلك كان الكلام المؤدى هو الموضوع الرئيس الذي شغل أوهمان Ohman، لأن الكاتب حين إنشائه للكلام لا يعلم أن ينتهي دوره ومتلقيه والطريقة التي يتم بها الارتباط بالواقع الاجتماعي في أثناء وضع الاختيارات أو سنّها<sup>21</sup>

كما أن انحرافات السياق لها أثرها الأسمى في كشف حقيقة الأسلوب الواحد، عندما لا يثبت كاتب النص على نسق نحوي مثلاً، كأن يردّد في كتاباته نسقاً نحوياً معيناً، ثمّ

مايلبث أن يعدل عنها إلى أنساق أخرى<sup>22</sup>، وهذا أحد المفاجآت التعبيرية التي تطرأ لإحاطات يتوقّف عندها القارئ، والمحلّل الأسلوبي على حدّ سواء.

- يجدر بنا القول: أنّ النظريات الأسلوبية الأخرى ركّزت على دواخل النص، وتركت عامل القارئ ثانوياً، والأحرى أن عمدة البحث الأسلوبي هو القارئ، لما له من تأويل يؤدي في نهاية المطاف إلى حشد هائل للمعاني، تتقاسمه معاني النص، لتنتج- في الأخير- معنى مثمراً، لأنّ القول بأسلوبية التعبير والأسلوبية النفسية هو إهتمام بالنص في منأى عن القارئ، هذا من جهة ومن أخراة تبدو ترائيل المعنى في تينك الأسلوبيتين إنّما تتأني بانضواء القارئ إلى النص، وإلا كيف السبيل إلى وجود تلك الجمالية بدون قراءة؟

نستوحي من كلّ هذا أنّ الدّعوة إلى القراءة هي دعوة إلى الدّخول والانضمام، وهي دعوة إلى الفهم والإفهام، بل هي دعوة إلى التعلّق والحياة، وبالتالي دعوة إلى الاستمرارية والانسجام، ولا يخفى على خاف أنّ هاتاه الدّعوة أول ما بدأت في الشريعة الإسلامية، في أول سورة العلق، في قوله تعالى: "اقرأ باسم ربك الذي خلق..."

ولذلك كان التقاعس عن العلم موتاً، وعدم التّلاقح به اندثاراً وضياًعاً.

## الهوامش والمراجع

- 1- لمزيد من التوضيح ينظر: - لحداني حميد: الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهري، ط1 للمركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء-عز العرب الحكيم بناني: الظاهرية وفلسفة اللغة، تطور مباحث الدلالة في الفلسفة النمساوية، إفريقيا الشرق المغرب ط 2003-و- منشور العبداني: العلمانية وعلم النص، للمركز الثقافي العربي - الدار البيضاء- المغرب ط1 . 2004م
- أحمد يوسف: الدلالات المفتوحة، مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى 2005
- نادية بونفكة: فلسفة إيموند هسرل، نظرية الركد الفينومينولوجي، تقديم الدكتور: عبد الرحمن بوقلف، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون- الجزائر.
- مجلة التواصل، ع 4- جامعة عنابة، الجزائر- جوان 1999. وبلفرنسية
- Edmund Husserl la Grise des sciences européennes et la phénoménologie transcendante Traduit par Gerard Granel France: editions Gallimard 1976
- 2- ينظر: نبيلة إبراهيم - القارئ في النص، نظرية للتأثير والاتصال- ص 101، مجلة فصول المجلد الخامس العدد الأول 1984.
- وللتفصيل ينظر: فولفغانغ إيزر: فعل القراءة نظرية جمالية لتأجواب ترجمة د. حميد الحداني ود. الجليلي للكنية مكتبة المناهل المغرب
- 3- ينظر أمبرطو إيكو: الأثر المفتوح ترجمة عبد الرحمن بوطي، دار الحوار الانثوية سورية، ط2، 2001 ص 13 وما بعدها.
- 4- ينظر: جورج مولينيه الأسلوبية، ترجمة د بسلام بركة ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان ص 7 وما بعدها.
- 5- ينظر: نبيلة إبراهيم - القارئ في النص، نظرية التأثير والاتصال- ص 103، مجلة فصول المجلد الخامس العدد الأول 1984.
- 6- ينظر: حسين الواد من قراءة النشأة إلى قراءة التثبيث ص 114، مجلة فصول المجلد الخامس ع1- 1984، عدد خاص بالأسلوبية.
- 7- للمرجع نفسه ص 114.
- 8- P.valery Revass ed pleide paris 1960 P11 نقلا عن حسين الواد المرجع السابق ص 115.
- 9- حسين الواد المرجع السابق ص 115.
- 10- نفسه ص 115
- 11- Arnold Rothe le role du lecteur dans la critique allemande contomporaine-in Revue poetique decembre 1968 pp96-105. نقلا عن حسين الواد المرجع السابق ص 118
- 12- حسين الواد المرجع السابق ص 118.
- 13- بول ريكور: نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى. ترجمة سعيد الغانمي الطبعة الأولى 2003 للمركز الثقافي العربي- المغرب ص 64.
- 14- ينظر على سبيل المثال: هنريش بليث البلاغة والأسلوبية- نحو نموذج سيميائي لتحليل النص- ترجمة وتقديم وتعليق الدكتور محمد العمري، منشورات دراسات سال ص 34.
- 15- ينظر عدنان بن ذريل: النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، منشورات إتحاد الكتاب العرب، ص 44.
- 16- محمد عزام: الأسلوبية منهجاً نقياً، منشورات وزارة الثقافة-سوريا- 1989 ص 126.
- 17- للمرجع نفسه ص 128.
- 18- فيلي سلتيرس: نحو نظرية أسلوبية لسانية، ترجمة: د. خالد محمود جمعة، دار الفكر بنمشق ط1 1424هـ= 2003م، ص 214.
- 19- فيلي سلتيرس، المرجع السابق ص 215.
- 20- للاقتادة ينظر: د. محمود أحمد نحلة، أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر ط2 2002 من ص 40 إلى ص 53.
- 21- R Ohman : Instrumental style. Notes on the theory of speech action current trends in stylistics p 115-141 نقلاً عن فيلي سلتيرس - للمرجع السابق- مترجماً بـ: الأسلوب المفيد، ملاحظات حول نظرية الكلام بوصفه سلوكاً في التيارات المتداولة في الأسلوبية.
- M.RiFFattere: Essais de stylistique Structurale. Barcelona 1976 P55- 22